

بلاغتنا العربية .. إلى أين ؟

للدكتور سعد أبو الرضا

الأستاذ المساعد بالكلية



## بلاغتنا العربية... إلى أين؟

نماذج الأدب تأتي أولاً ثم يكون النقد والبلاغة خلال مدارس هذه النصوص، ومحاولة سبر أبعادها، وإدراك سياتها الفنية، وعلاقاتها الداخلية التي تجلي بناءها، مع ما قد يكون من تفسير وشرح، سواء تعددت مستويات ذلك الشرح أو لم تتعدد..

إذن فالأدب بما له من خصائص فنية هو موضوع النقد والبلاغة إذا صح ما سبق فلم ينحو بعضنا باللائمة على البلاغة العربية، بل ويطالب بهجرها لأنها أفسدت الذوق، وجففت ينابيع الأدب، وخرجت به إلى الصنعة العقيمة<sup>(١)</sup>، مع أن البلاغة تذوق جمالي ينبغي أن يدخل في جملة ما نتعامل به من وسائل مع النصوص، عندما نقوم النتاج الأدبي والفني.

ولكن ربما كانت النظرة التجزئية إلى تطور الفكر البلاغي والنقدي عند العرب هي التي دعت إلى ذلك الاتجاه.. لا سيما في محاولة الفصل بين البلاغة والنقد، وخلال عصور الأدب المختلفة لم يكن هناك فصل بين النقد والبلاغة، هكذا مر العصر الجاهلي وتلاه عصر صدر الإسلام، فالعصر الأموي، وفترة من العصر العباسي دون أن يشير دارسوا الأدب أثناء تناوهم للنصوص أنهم يبحثون في النقد الأدبي أو البلاغة، وربما كانت دراساتهم وتحليلاتهم للنصوص من قبيل البحث في بلاغتها، من وجهة نظرهم، وهم يقصدون بذلك البحث، محاولة التفسير والشرح وبيان مدى الإصابة أو الاخفاق وما حققه مبدع النص من غايات وأهداف وفق المثل الفنية، وهكذا يحاولون دراسة النصوص والتمييز بين أساليبها المختلفة، وأقول يحاولون، خاضعين في ذلك للذوق.. الذي ترمس بالنصوص وتثقف بالتقاليد الفنية المرعية آنذاك.

---

(١) النقد المنهجي عند العرب - محمد مندور: ص ٣٢٣، ط نهضة مصر، ١٩٧٢م.

كذلك كان الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) في «البيان والتبيين»، وابن المعتز (ت ٢٩٦ هـ) في «البديع»، بل وعبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) في «دلائل الاعجاز»، وأسرار البلاغة بصفة عامة، وهؤلاء هم الثلاثة الذين ينسب إليهم بعض المفكرين نشأة البلاغة العربية<sup>(٢)</sup>، ولست بذلك أسوي بين هؤلاء الثلاثة في درجة رقي منهج كل منهم، وإنما فقط أشير إليهم بصفة عامة، ومن حيث نسبة نشأة البلاغة إلى كل منهم.

وربما كان انتشار فكرة تقرير الأسس والتقسيمات هو ما حدى ببعض الدارسين إلى تخصيص البلاغة بالتقسيمات والمناهج التعليمية التقريرية منذ أبي هلال العسكري كما يرى الدكتور محمد مندور، عندما نسب تحول النقد إلى بلاغة لأبي هلال في «الصناعتين»<sup>(٣)</sup> وكما يرى ابن خلدون<sup>(٤)</sup> في نسبة نشأة البلاغة للسكاكي (٦٢٦هـ) في كتابه «مفتاح العلوم» حيث ظهرت أقسام المعاني والبيان والبديع منضبطة مقننة، في صورة علمية بعد أن عرض لكثير منها قبل ذلك عبدالقاهر، ثم الزمخشري في صورة قوامها النظرة الذوقية الفنية المثقفة التي قمرست بدراسة النصوص، ووعت تقاليد العرب في الإبداع، ونهلت من الثقافات المختلفة واحتكت احتكاكا قويا بضروب الإبداع والاعجاز في القرآن الكريم.

وإذا كانت تقسيمات أبي هلال العسكري، أو تقسيمات السكاكي أو غيرها من المفكرين العرب الذين سبقوهم في هذا المجال قد جاءت بناء على مدارسة للنصوص واستيعاب لمقارنات وموازنات بينها قاموا هم بها، أو قام غيرهم بها في مجال الأدب العربي ونصوصه، فلماذا يعاب عليهم ذلك، طالما أنهم يبتغون بها وصول المبدعين إلى أفضل مستوى فني، وقد يكون في ذلك تقييد للمبدع، وتحجيم لمقدرته، وقولية لفكره، لكنني أعتقد أن هذه الحدود هي الحد الأدنى الذي يجب ألا يهبط دونه أحد، بدليل أن من

(٢) نحو بلاغة جديدة ص ٤، ٧، ٨ محمد عبدالمعتمد خفاجة - البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٧، ٥٨ د. شوقي

ضيف ، البلاغة العربية في دور نشأتها ص ١٧٠ د. سيد نوفل

(٣) النقد المنهجي عند العرب ص ٣٢٢ وما بعدها.

(٤) المقدمة لابن خلدون ص ٥٥٢.

يبدع محققا جمالا فنيا متجاوزا به هذه الحدود والأعراف لم يكن ليعاب عليه ذلك، بل يذكر له ويحمد له ويشنون عليه به، وإن وجد من يعارضه، كالعهد بكل جديد وقت حدوثه.

وليس فكرنا العربي بلجونه إلى التقسيمات بدعا بين آداب الدنيا في هذا الصدد، فهذا هو ذا أرسطو أبو النقد الأدبي عند اليونان، يلجأ إلى التقسيمات في القرن الثالث ق.م، وهو من يعزى إليه التأثير في آداب العالم أجمع بما قننه للنقد الأدبي سواء في رسالته عن الشعر أو كتابه عن الخطابة.

وكذلك فعل بوالو في فرنسا حين قنن للألوان الأدبية المختلفة في «الفن الشعري» وهو مشرع النظرية الكلاسيكية في القرن السابع عشر، وقد تأثر بأرسطو<sup>(٥)</sup>.

بل إن قدامة بن جعفر قد تأثر هو أيضا بأرسطو وقدم في كتابه «نقد الشعر» تقنيات، فلم لم يصنف ضمن البلاغيين فقط إذا كانت التقسيمات والتقريرية والتعليمية هي أساس تصنيف المفكرين بين نقاد وبلاغيين؟

إذن لم يكن السكاكي بدعا فيما فعل، بل ربما كان هذا اللون من الفكر بحاجة إلى تقنين السكاكي وتقريرته لينضبط في وقت تهددت السليقة العربية بفساد الأذواق، وتضاؤل الطبع في نفوس العرب نتيجة عوامل عدة منها امتزاج العرب بالشعوب الأخرى، والصراعات الداخلية والانقسامات، وتربص أعداء العرب والمسلمين بهم من صليبيين وتتار، وما صاحب ذلك من ضياع فكري، وجمود، امتد منذ القرن السادس الهجري حتى القرن الثاني عشر تقريبا، حيث طغت فكرة التلخيصات، ودار هذا الفكر في دائرة مغلقة ضيقة، وكان المفروض أن من جاءوا بعد السكاكي لا يسجنون أنفسهم داخل هذه الدائرة، وهو ما تنبه إليه بعض من يتصدون لدراسة البلاغة في العصر الحاضر على تفاوت في درجة المحاولة.

(٥) الاتجاهات الحديثة للنقد الأدبي - د. كوثر عبدالسلام البحيري، ص ١٦.

وربما كان وجود بعض النظرات الجزئية كفكرة بيت القصيد مثلاً في الدراسات الأدبية قبل العصر الحديث، أو المقارنات الجزئية المحدودة، هو ما حدى ببعض الدارسين إلى الربط بين ذلك وبين مفهوم البلاغة، إذ يخصصونها بالبحث في مظاهر الجمال الحسي والمعنوي في المفردات والجمل<sup>(٦)</sup>، دون البحث في القيمة الجمالية للنص الأدبي المتكامل التي يختص بها النقد الأدبي في نظر هؤلاء، أو يربطون بين هذا الفهم الذي يفصل بين البلاغة والنقد، وبين عدم وجود نظريات نقدية بالمفهوم الحديث<sup>(٧)</sup>، في مجال دراسة الأدب قبل العصر الحديث.. وقد يكون لهم بعض الحق في ذلك، ولكن التعميم هنا جائر ظالم، لأن هناك من البلاغيين والنقاد العرب قبل العصر الحديث من اهتم بالدعوة إلى الرؤية الكلية للنص، ووجوب توثق الاتصال بين أجزاء القصيدة الواحدة، بل وتواتر ذلك بينهم، بصورة أو بأخرى - وأكرر بصورة أو بأخرى - فما هو ابن طباطبا العلوي الأصبهاني المتوفي سنة ٣٢٢ هـ في كتابه «عيار الشعر» يتنبه إلى فكرة الوحدة العضوية في القصيدة<sup>(٨)</sup>. وهو بذلك ينمي ويطور فكرة حسن التخلّص من غرض إلى غرض في القصيدة التي دعا إليها سابقوه، حتى إذا جاء ابن رشيق (المتوفي سنة ٤٦٣ هـ) في كتابه العمدة في صناعة الشعر يدلل على فكرة حسن الخروج من الغزل إلى ما يليه باقتباس نص للحاتمي من القرن الرابع الهجري حيث ينبه هذا الأخير إلى أن القصيدة بنية عضوية تتلاحم أجزاؤها حتى كأنها بيت واحد وفكرة واحدة<sup>(٩)</sup>.

والعجيب أن فكرة الفصل بين البلاغة والنقد تجد من يدعو إليها أو يحاول تبريرها بدعوى البحث في نشأة البلاغة والنقد الأدبي وأيهما الأصل وأيهما الفرع، وينتهي إلى أن النقد هو الأصل والبلاغة فرع وتابعة له<sup>(١٠)</sup>، وما أغنانا عن البحث في النشأة، إنما المرجو

(٦) علم المعاني - د. عبدالعزيز عتيق - ص ١٨.

(٧) الاتجاهات الحديثة للنقد الأدبي، ص ١٧، د. كوثر عبدالسلام.

(٨) ص ٦، ٧، «عيار الشعر» لمحمد بن طباطبا العلوي، لتحقيق وتعليق د. طه الحاجري ود. محمد زغلول سلام سنة ١٩٥٦م، المكتبة التجارية القاهرة.

(٩) العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٩٤ - ١٠٨ - والبلاغة تطوّر وتاريخ، د. شوقي ضيف ص ١٥١.

(١٠) مجلة الفيصل العدد (٣٦) إبريل - مايو سنة ١٩٨٠، مقال للدكتور عبده عبدالعزيز قلقيله من ص ٢٨: ص ٣٤ - ولنفس المؤلف بحث عن كتاب الوساطة - وهو دراسة جيدة في التراث.

هو محاولة الكشف عن قيمة تراثنا، وإبراز استمراريته وإطراده من منظور الأصالة والمعاصرة، طالما أن فيه نفعا، وليست جهود عبدالقاهر الجرجاني مثلا ومنهجه في دراسة العلاقات في النظم كأساس لتقييم النص والكشف عن أبعاد المعنى المتضمن بخافية على دارس تراثنا، حيث إن اتجاه عبدالقاهر هذا هو ما تحاول النظرية البنائية في النقد اليوم أن تحققه في بعض جوانبها.

ويمكن أن نطلق على هذا اللون من التفكير اسم «البلاغة والنقد» طالما أن بينهما هذا الاتصال الذي أشرت إليه، وطالما أن موضوعهما هو الأدب بخصائصه الفنية، وطالما أن السابقين من العرب لم يفصلوا بينهما، بل أن مدلولها معا كان مقصودا عند إطلاق أحدهما، وفكرة البلاغة كقيمة تعبيرية لم تزدهر إلا في حضن البحث عن اعجاز القرآن ثم صارت علما مقننا بعد ذلك، كما أن ذبوع واشتهار تعبير «النقد الأدبي» بمفهومه الحديث، وليد العصر الحاضر.

وأقترح أن يظل كل منهما علما أو فنا قائما مستقلا بذاته ينمو ويتطور من داخله، وبلاستفادة من مناهج الدراسات الحديثة، ويتعاونان مع غيرهما من العلوم الانسانية في الكشف عن الانسان وقيمة ما يبده.

أما أن نجعل البلاغة أو النقد يحتوي أي منهما الآخر ليختفي فيه، فالتنا بذلك ننده تماما، ونظلمه على حساب الآخر، ونهيل التراب على فترة مشرقة من تاريخنا.

ولا يظن أحد أنني بذلك أبتغي دفاعا عن البلاغة أو عن التراث، وإنما أنا أدعو إلى وضع الأمور في مكانها الصحيح دون ظلم أو اسراف في التقدير، وأمامنا تطور المذاهب الأدبية في الآداب الأوروبية حيث قد مثلت تلك المذاهب روح عصرها وأدت رسالتها قبل احتضارها، وقد ظهر في كل منها تيار فلسفي سائد في العصر، وجمهور وضعه الكتاب نصب أعينهم، وتيار فني يلائم بين الحاجات العقلية والحاجات الاجتماعية لذلك الجمهور، فالكلاسيكية سارت على أسس عقلية، وقد ارتبطت بشروح أرسطو، وكان

جمهورية من الارستقراطيين، ثم قامت الرومانتيكية على أساس الفلسفة العاطفية وكان جمهورها من البرجوازيين، ثم قامت الواقعية على أساس الفلسفة الوضعية، وكان جمهورها من البرجوازيين أو العمال<sup>(١١)</sup>، وهكذا ولقد كان التواصل قائما بينها سلبا أو إيجابا برغم سيطرة احداها على المجال الأدبي، ولم يمنع ذلك أيضا من أن تتجاوز في الساحة الفكرية نماذج لأجناس أدبية مختلفة تنتمي إلى مذاهب أدبية متعددة، وهذه روادها، ولتلك عشاقها.

وبرغم ما يمكن أن يرى من فارق بين تطور المذاهب الأدبية في أوروبا وبين مراحل فكرنا، لكننا يمكن أن نعتبر العلاقة بين مراحل فكرنا علاقة تطورية أيضا!! بمعنى أن المرحلة التي تنتهي مع نهاية القرن الخامس الهجري يمكن تسميتها مرحلة الاتجاه الفني أو المرحلة الأولى للنقد والبلاغة وتشمل مفكرين مثل ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن المعتز وابن طباطبا والصولي والآمدي والقاضي الجرجاني والقزاز القيرواني وأبي هلال العسكري وابن رشيق وعبدالقاهر الجرجاني وغيرهم.

وقد تميزت هذه المرحلة بالبحث في النصوص بمناهج يغلب عليها التحليل، والذوق المثقف، ومحاولة استنباط أصول بطريقة غير تقريرية، غالبا قوامها التمرس، بالنصوص والنظرة الأدبية الذوقية التي تولي الأعراف الفنية حقها من التقدير والاعتبار.

أما المرحلة الثانية فتبدأ مع القرن السادس الهجري حتى الثاني عشر، ويمكن تسميتها بمرحلة الاتجاه التعليمي في النقد والبلاغة والتي تتميز بمحاولة الضبط والتقنين والتي ربما تكون قد أهملت اعتبار الذوق، ورعاية الأعراف الفنية في سبيل الغاية العلمية التقنينية. وتشمل مفكرين مثل السكاكي وابن الأثير والخطيب والقزويني وغيرهم.

---

(١١) في النقد التطبيقي والمقارن د. محمد غنيمي هلال ص ٧.



وما بعد ذلك حتى اليوم يمكن تسميتها المرحلة الثالثة أو مرحلة التجديد، وتتميز بمحاولة وضع مناهج لتجديد البلاغة العربية، وتقديم بعض الاقتراحات في هذا الصدد، بعضها يتخذ طابع البناء وبعضها الآخر يتخذ طابع الهدم، لكننا في خضم ذلك كله سوف نجد اتجاهات وتخطيطات مفيدة بحاجة إلى النماء والاكتمال والتهذيب، وطبعي أن المرحلة الأولى من هذا التقسيم قد سبقت بمحاولات نما فيها الحس البلاغي، وأعتقد أنها تناظر وتعايش المحاولات التي كان فيها الشعر والنثر العربيين يخطان دربهما ويوصلان لفنيتيهما

هذا بالنسبة للبلاغة، أما النقد الأدبي الحديث، فهو ينمو ويتطور نتيجة محاولات الغرب تنميته وتطويره، كما أن هناك من المفكرين العرب من يحاول ذلك، وربما كانت محاولات التطوير للنقد الأدبي وسهولة الاتصال به إلى حد ما، هو ما حدى ببعض الدارسين إلى أن يتخذوا من البلاغة العربية هذه المواقف التي سبق أن أشرت إليها ورفضتها.

وإذا كنا نرى أن البلاغة دراسة جمالية ذوقية فنحن ندعو إلى أن نفيد منها مستعينين بعلم النفس، وعلم الجمال وغيرها من العلوم الحديثة من خلال نظرة جديدة واسعة تجعل البلاغة صالحة لأداء وظيفتها في مجال الأدب الحديث بكل فنونه، كما تؤكد على أهميتها في هداية الأديب وإرشاده إلى الصياغة الفنية الموحية، بما في ذلك أهمية علم المعاني في صون اللسان العربي من اللحن والخطأ في التعبير<sup>(١٢)</sup>.

وإذا كنا حين نعرف الأسلوب الأدبي نميزه من غيره من الأساليب بما يبعثه في نفوسنا من استجابات انفعالية عاطفية، أو فنية، لا يبعثها فينا غيره، أفليس من البدهة بعد ذلك أن نحسب لهذه الميزة حسابها في دراسة الأدب وتقويم نصوصه<sup>(١٣)</sup>.

---

(١٢) أنظر محاولة الأستاذ محمد خلف أحمد «من الوجهة النفسية» وكذلك لكاتب هذا المقال «الاتجاه النفسي في نقد الشعر» نشر مكتبة المعارف بالرياض.

(١٣) د. مازن المبارك - الموجز في تاريخ البلاغة العربية، ص ١٣.

ومن الخير لنا إذن أن نعود إلى هذا التراث وننظر فيه بصبر وإخلاص، ومن موقف عصري، وسوف نجد أن فيه نفعا وخيرا لفكرنا، ولأمتنا، ولأجيالنا المتطلعة، بعد أن نهمل ما فيه من أصداف عاطلة من الدلالة خاصة في البديع، كما نهمل ما علق بها من آثار الفلسفة والمنطق والكلام والأصول وغير ذلك مما يباعد بين بلاغتنا وأهدافها الذوقية، وغاياتها الفنية، وما يبقى بعد ذلك فإنه يمثل بلاغتنا الأصيلة، للغتنا وشخصيتنا الأدبية الخالدة.....

والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.. ، ، ،